كلمة رئيس جمهورية ألمانيا الاتحادية يواخيم غاوك
أثناء الاحتفال بالذكرى السنوية التسعين لتأسيس مؤسسة فريدريش إيبرت

نَستَذكِرُ مساءَ اليوم شخصيةً مهمةً كما نَستَذكِرُ حدثًا مهمًا في تاريخ الديمقراطية الألمانية، فقبل تسعين عامًا وتحديدًا في الثامن والعشرين من شباط/فبراير 1925 توفى فريدريش إيبرت في برلين، وهو أول رئيسٍ في جمهورية فايمر. فقط بُعيد أيامٍ قليلة على وفاته أُسست مؤسسة تحمل اسمه غرضها أنْ تحفظ إرثه السياسي.

إن ذكرى تأسيس مؤسسة فريدريش إيبرت مناسبةٌ تستحق الاحتفال بها، فالمؤسسة التي حظرها النازيون وأُعيد تأسيسها بعد الحرب العالمية الثانية تمثّل دلالةً على تمثل دلالة على ممارسة تقاليد الديمقراطية وفكرها في بلدنا، كما تمثّل تقليدًا يمكننا أن نفخر بالانتماء له. لذا أنا سعيدٌ جدًا بأنْ أكونَ الآن هنا بينكم!

لكن هذه الذكرى التسعين لانطلاقة المؤسسة تدعونا أيضًا للوقوف قليلاً والتفكُّر، فنحن نفكِّر اليوم بصاحب الاسم الذي تحمله، نفكر برجلٍ دافع بلا كللٍ أو تعبٍ حتى وافته المنية عن الجمهورية الألمانية الأولى وذلك إزاء أعدائها من يسارٍ أو يمين، لذا فإن تكريمه يعني في ذات الوقت أنْ نعي قيمةَ النُظُمِ الديمقراطيةِ الفائقة وأن نعي مدى هشاشتها، وأن نمتني عظيم الامتنان لعدد لا يحصى من الناس الذين ناضلوا من أجل الحرية والديمقراطية في ألمانيا مثل فريدريش إيبرت، وكثير منهم قضى على هذا الطريق.

هناك صورة شخصية لفريدريش إيبرت معلقة في بهو مدخلِ قصرِ بِلفو [قصر الجمهورية] يسارًا قرب الباب لجهة الحديقة، وهي لوحة زيتية كبيرة رسمها الفنان إميل أورليك سنة 1920. وعندما أستقبل الزوار وأجول بهم القصر أبقى واقفًا أمام اللوحة في كلِّ مرةٍ تقريبًا. بنفس الطريقة أود اليوم أن أقف وإن لبرهةٍ عند هذه الشخصية اللامعة.

كان فريدريش إيبرت أحد رموز الثورة والدولة الألمانية الديمقراطية. رئيسًا وطنيا من الشعب، إذ ظل في منصبه "متواضعًا – نبيلا"، وكما قال توماس مان ذات مرة "إنه مواطنٌ من المواطنين". وكان خصومه السياسيون ونقاده يقولون عنه بتهكم إنه "ابن الخياط، وصبي صانع السروج، والنادل" ويهزؤون منه بنعته بـ "المواطن من الطبقة الوسطى" و "رجل الورق".

وكان كلُّ تهجمٍ على الرئيس الوطني في الوقت ذاته هجومًا على الديمقراطية، إذ لا نجد أحدًا يُجسِّد جمهورية فايمر كما فعل فريدريش إيبرت، ففي ظل البيئة السياسية المسممة من اليمين بـ "أسطورة الطعنة في الظهر" أيَّد إيبرت الديمقراطية البرلمانية وحوَّل مبادئها إلى أفعال، وقد كان رجل المساومة الذي يدعو للتفاهم والتنازلات المتبادلة في مجتمعٍ تمزقه الأيدولوجيات، وكان وطنيًا ومصلحًا حثَّ أحزاب ائتلاف فايمر بحزمٍ على التعاون مع بعضها بعيداً عن النزاعات الفكرية.

أراد فريدريش إيبرت نظامًا سياسيًا يوفِّر تكافؤ الفرص لجميع المواطنين، حيث يعيشون قيَمَهُم ويحققون مصالحهم بسلام شريطة أنْ يكونوا مستعدين للانصياع لقواعد اللعبة الديمقراطية. وكان يريد بالاشتراكية الديمقراطية إقامة مجتمع لا تأثير فيه لمكانة الشخص أو أصوله الاجتماعية على مساره التعليمي أو نجاحه المهني. كما سعى من أجل ثقافة سياسية تقوم على الحُجج لا مكان فيها للتحقير وتشويه السمعة.

هو، الذي قلما احترمه خصومه، والذي كانت له تجربة مريرة، والذي عانى من ظروف فايمر، لم يتخلَ عن الجمهورية. كان رؤيويًا نافذ البصيرة التزم بالديمقراطية البرلمانية بشغفٍ رغم كل المعارضات والمهاترات والعنف. عمل حتى النهاية بكلِّ ما أوتيَ من قوةٍ وما كان متاحًا له دون أن يراعي وضعه الصحي. وكان شخصًا عمليًا يعرف مشقات العمل اليومي على الأفكار الكبيرة وما يتطلب من صبر، وكان مقتنعًا بأن لا أجوبة بسيطة في السياسة ولا حقائق مطلقة ولا خلاص. وظل وفيًا لهذا الموقف بالرغم من أنَّ برامج الخلاص اليمينية واليسارية راجت في عصره. ولم يزِح قيد أنملة عن موقفه المطالب بالحرية والعدل والتضامن والديمقراطية البرلمانية.

أنحني أمام هذا الديمقراطي الاشتراكي العظيم، والألماني العظيم. نحن مواطني الديمقراطية الألمانية الثانية لدينا ما يكفي من الأسباب لكي نكون ممتنين لفريدريش إيبرت – ولآخرين معه ممن دافعوا عن الديمقراطية.

إن مؤسسة فريدريش إيبرت تحافظ منذ عقود على الإرث السياسي الخاص بصاحب الاسم الذي تحمله، وقد ساهمت في ألمانيا كما في دولٍ كثيرةٍ أخرى في تمكين الناس ليعيشوا حياةً حرةً يقرروا فيها مصيرهم بأنفسهم، ولطالما استطاعت أن توائم عملها مع الشروط المتغيِّرة دون أن تخون مبادئها، ولطالما برهنت على أنها منظمة مُعلِّمة بالمعنى الأفضل للكلمة.

يدهشني بشكل خاص تنوع حقول التزامها، وما على المرءِ سوى أنْ يُعدِّدها: فالمؤسسة تدعم التثقيف السياسي المستنير بالديمقراطية والتعددية، وتحفظ ذاكرة الجذور الديمقراطية الاشتراكية وجذور النقابات التاريخية، وتُثري النقاش السياسي في بلدنا عبر التحليلات والخطط والنقد والأفكار، كما تعمل من أجل تحقيق عدالةٍ أكبر في فرص التعليم من خلال اعطاء المنح الدراسية الجامعية لشابات وشباب موهوبين ممن ينتمون لعائلات غير ميسورة، ناهيك عن أنها ترافق الممنوحين والممنوحات وتلهمهم ذهنيًا وتوفر لهم فرص التشبيك أثناء الدراسة وبعد التخرج.

إضافةً إلى ذلك قدَّمَت مؤسسة فريدريش إيبرت منذ عقودٍ مساهمةً لا غنىً عنها في مجال التعاون العابر للحدود والتفاهم المتبادل، أكان ذلك فيما يخص تجاوز النظم الديكتاتورية في اليونان أو البرتغال أو إسبانيا في سياق الوحدة الأوروبية، أو فيما يخص تعزيز العلاقات العابرة للأطلسي أو التزامها في كافة أنحاء العالم بقضية ضمان السلام وحل النزاعات مدنيًا.

إن مكاتب المؤسسة القائمة في أكثر من مئة بلد المنتشرة حول العالم خير دليل على ذلك، وقد صارت للمؤسسة مكانة عالمية منذ زمن، فالعاملون فيها يتعاونون مع الناس في المناطق المختلفة وبخاصة عبر التشجيع على المطالبة بالمشاركة – في مجال السياسة والاقتصاد على حدٍّ سواء، وهم يتعاونون مع الفلاحين البسطاء والتعاونيات، ومع النقابات والاتحادات، ومع الأحزاب والحكومات. وهنا يمكن للطرفين أن يتعلما من بعضهما البعض وأن يبنيا الثقة بينهما. بهذا الشكل استطاعت مؤسسة فريدريش إيبرت خلال سنوات أن تنسج شبكة علاقات حول العالم، ولم تكسب شركاء سياسيين أو علميين فقط، إنما كسبت أيضًا أصدقاء لبلدنا.

نحتفل اليوم بالذكرى السنوية التسعين لتأسيس مؤسسة فريدريش إيبرت، ولذلك ومن المنطقي أن تكون في المركز. ولكن ما قلته للتو عن مساهماتها – وهي سبب للسعادة يتكرر – ينسحب على عمل كلِّ المؤسسات السياسية [القريبة من الأحزاب في ألمانيا].

جميعها تلتزم كفاعل سياسي مستقل في ألمانيا وأوروبا والعالم، لكن ما يجمعها خارج حدود الأحزاب هو اهتمامها بحقوق الإنسان والمواطن، وهي ممهدة لمجتمع المواطن العالمي المتسامح والمتنور، وهي نفسها مثال للديمقراطية ساطع. لذا أقدم شكري الحار لها!

هناك إنجازان حققتهما المؤسسات السياسية يهماني كثيرًا وأريد اليوم أن أضيء عليهما.

الأول يخص تعزيز حس المواطنة والاستعداد لتحمل المسئولية في الولايات الألمانية الشرقية في السنوات التي تلت توحيد الألمانيتين. بصفتي مواطنًا من مكلنبورغ [ولاية شرقية] ومن سكان جمهورية ألمانيا الديمقراطية [الشرقية سابقًا] لسنوات طوال، أعرف كم استصعَبَ كثرٌ منا الانتقال من الديكتاتورية إلى الديمقراطية. فبعد الثورة السلمية في خريف 1989 وقف من كانوا مستلبين من قَبل أمام مهمة صوغ حريتهم المكتسبة ضمن الحياة اليومية الديمقراطية. نحن الذين عشنا سنوات طوال بلا حرية كان علينا أن نتعلم القيام بدور المواطن الذي يقرر مصيره بنفسه ويتحمل مسئولية نفسه بنفسه.

إن المؤسسات السياسية قدمت الكثير من المساعدة في هذا السياق، حيث ساهمت كثيرًا في التثقيف السياسي وترسيخ البنى الديمقراطية أثناء المرحلة الانتقالية، وشرحت طبيعة العمليات السياسية دون تعالٍ إنما عبر الحوار المفتوح، وساعدت على تجاوز الخذلان، وشجعت كثيرًا على المشاركة، وبهذا تم دعم نمو مجتمع مواطنين حر.

أما الانجاز الثاني الذي حققته المؤسسات السياسية، والذي أريد أن أنوه له بشدة، هو التزامها دوليًا بقضايا الحرية والديمقراطية ودولة القانون.

سيادة الرئيس كفاشنيفسكي أخمن أنك ستتحدث بعد قليل عن قصة النجاح المميزة للتعاون بين المؤسسات السياسية الألمانية البولندية وشركائها المحليين في الفترة الانتقالية في بولندا ودول أخرى في شرق أوروبا بعد نهاية الحرب الباردة. وقد حققت المؤسسات السياسية الكثير أيضًا في بقاع أخرى من العالم، في غرب أوروبا وفي أفريقيا وأسيا وأمريكا اللاتينية.

والحقيقة أيضًا أن الشروط التي تعمل المؤسسات السياسية في ظلها في الخارج قد تغيرت في الأعوام العشرة الأخيرة، فموجة الدمقرطة التي اجتاحت دولا كثيرة بعد النقلة التاريخية في 1989 و 1990 خبت، ونلاحظ اليوم أن جاذبية الديمقراطية الغربية ضعفت في بعض مناطق العالم، ونعايش حكومات سلطوية تنظر بعين الشك والريبة إلى المؤسسات السياسية، حتى أن بعضها يضغط على نشطاء المجتمع المدني ويمارس القمع أو سياسة الترويع.

لا أحد يعرف أفضل منكم أن عمل المؤسسات السياسية في الخارج أصبح أصعب وغالبًا أخطر في عالَمٍ تعم الفوضى مناح كثيرة فيه، ولكن من شأن الرد على ذلك بالانسحاب أن يكون خطأً كبيرًا، فحقوق الإنسان والمواطن المحددة في ميثاق الأمم المتحدة ليست بقضايا حصرية للغرب. إنها حقوق كونية تتيح للفرد أن يعيش حياة كريمة يقرر فيها مصيره بنفسه. إنها حقوق يتوق لها المضطهدون والملاحقون في كثير من دول العالم.

لذا وأكثر من أي وقت مضى نحتاج للمؤسسات السياسية التي تعرض تجربتنا في الديمقراطية ودولة القانون في الخارج، وتلهم الناس في المجتمعات التي تمر بمرحلة انتقالية وتحفزهم، وتشارك بنشاط في صوغ الديمقراطية. نحن نحتاج مؤسسات تقوم بذلك بمعية شركاء محليين في الدول المضيفة، وذلك بشفافية وموثوقية، أي نحتاج لمؤسسات تحمل فكر فريدريش إيبرت إلى العالم بغض النظر عن قربها من أي حزب.

وأنتم جميعا خير دليل على استمرار هذا الفكر حيًا. ولا يمكن الاستغناء عن مساهماتكم من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان لا الآن ولا مستقبلاً. أشكركم من أعماق قلبي على التزامكم، وأتمنى لمؤسسة فريدريش إيبرت كلَّ التوفيق في ذكرى تأسيسها.